المظاهر العسكرية في بناء بغداد المدورة

الدكتور طاهر العميد
مدرس في قسم الآثار

من البدهي ، أن بواعث بناء المدن في الماضي والحاضر ، يختلف بعضها عن البعض الآخر ، فمن المدن مايشيد لأسباب سياسية ، وبعضها لأسباب عسكرية وبعضها لأسباب تجارية ، وقسم آخر يشيد للراحة والأستجمام •

فالمدينة المشيدة لاسباب سياسية ، يفضل ان تخطط في مكان وسيط ، حتى يكون في استطاعتها ، ان كانت عاصمة للدولة أن تشرف على تسيير دفة الأمور الادارية في اوقات السلم ، وأن تنشط في السيطرة على اعمال التمرد والخروج على القانون في فترات الحرب •

والمدن المختارة لتكون مركزا تجاريا ، فمن الواجب ان يكون الموضع المختار قريبا من مصادر الثروات الحيوانية والغذائية والصناعية ، وعلى مفترق طرق المواصلات البرية منها والنهرية •

والمدن المشيدة للراحة والاستجمام ، فيفضل أن تتوافر فيها الحدائق والبساتين والميادين والساحات وحدائق الحيوانات والقصور المريحة ، لكي تكون أداة للتسلية ووسيلة للراحة ، تشبع رغبة منشئيها في توفير أوقات هادئة وايجاد جو مريح •

والمدن التي تبنى للاغراض العسكرية ، يراعى في بنائها اختيار موقع ستراتيجي مهم يهيمن على طقر المواصلات ، ويؤمن خط الرجعة وتوصيل الامدادات البشرية والغذائية ، فضلا عن متانة البناء وتجهيزه بالابراج والشرفات والمزاغل •

ومدينة أبى جعفر المنصور ، كان من اهم بواعث بنائها ، البواعث السياسية والعسكرية وسنحاول في هذا البحث ، مناقشة المظاهر العسكرية فيها ، معتمدين في ذلك على النصوص التأريخية التي تناولت البحث عنها والتى تعد المرجع الوحيد للباحثين •

واذا تفحصنا النصوص التأريخية المختلفة ، التي تناولت الحديث عن حياة الخليفتين العباسيين الأوليين أبى العباس السفاح ، وابى جعفر المنصور ، فأننا نلحظ أنهما قد تنقلا من مكان الى آخر ، دون أن يحسما أمر العاصمة ،

ولقد نزل ابو العباس السفاح عند بدء الدولة العباسية مدينة الكوفة[1] وتشير بعض النصوص أنه أحدث بناء في قصر ابن هبيرة واستتم بعض مقاصير فيها وأطلق عليها اسم الهاشمية وسكنها [2] ، ولم يمكث فيها طويلا ، اذ سرعان ما انتقل الى الأنبار وشيد مدينة الهاشمية فيها [3] وفي الأنبار توفي السفاح عام ١٣٦هـ [4] ودفن فيها [5] بقصره [6] .

والذي يبدو أن الخليفة العباسى الأول ، كان قد أدرك ، أن الأقامة في الكوفة تنطوي على مغامرة كبيرة ، فهي وان كانت بيئة صالحة لنشر مبادىء الدعوة العباسية في طورها السري ،فأنها لم تعد كذلك ، بعد أن أعلنت الدولة ووضحت مبادؤها ، تلك المبادىء التي لم تعتمد البيت العلوى أساس الحكم، لذا خشي السفاح أن يقيم بين الكوفيين كثيرا ، فآثر أن يعيش بين جنده الخراسانيين في معسكر حمام أعين ، ومنه كان يدير شوؤن الدولة السياسية والأدارية والعسكرية .

والظاهر من بعض الروايات التأريخية انه حينما أستخلف المنصور بنى مدينة الهاشمية والتى تقع بين الكوفة والحيرة والذى يبدو أن المنصور لم يمكث في هذه المدينة كثيرا ، فقد كرهها كرها شديدا ، وراح يتطلع الى اختيار مكان مناسب آخر ، اذ ادرك بعد ثورة الراوندية في الهاشمية ، بأنه أصبح في حكم المستحيل أن يعيش فيها، والراجح أنه كان يظن فيهم الأخلاص له وللبيت العباسى في أول الأمر ، بيد أنه أدرك بعد أن بانت آراؤهم فيه وفي خلافته ، بأن اخلاصهم كان تكتيكا سياسيا بارعا، انتهجوه للتقرب منه وجعله يثق فيهم، حتى اذا أدركوا غايتهم ، ووثقوا في انفسهم ، القدرة على ازالته ، وتقويض خلافته ، عمدوا الى الثورة .

---

١ ــ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ واليعقوبي ، البلدان صفحة ٢٣٧ ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٣ ، الطبري ج ٦ صفحة ٨٧ .

٢ ــ البلاذري ، نفس المصدر ، صفحة ٢٨٥

٣ ــ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ ، اليعقوبي ، البلدان صفحة ٢٣٧ ، تأريخ اليعقوبي ، ج ٢ ج ٢ صفحة ٤٢٩ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف صفحة ٣٣٩ ، ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ح ١ ص ٤٨٦ .

٤ ــ الطبري ، ج ٦ صفحة ١٢٠

٥ ــ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ ، تأريخ اليعقوبي ، ج ٢ صفحة ٤٣٤

٦ ــ تأريخ اليعقوبي ، ج ٢ صفحة ٤٣٤ .

ولئن كانت ثورة الراوندية بارعة في التخطط ، فأنها لم تكن في مستوى الثورة المحكمة تنفيذا ، فلقد كانت غبية ، اذ وضعت في حسابها اغتيال الخليفة فحسب ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نبين أثرها في نفس المنصور بوجه خاص، وعلى مستقبل الدولة العباسية بوجه عام .

وان كانت ثورة الراوندية لم تبلغ أهدافها، ولم تجن من الخليفة المنصور الا الأضطهاد والنكد، فأنها كانت من الدوافع المهمة في بناء بغداد. فلقد أثبتت أن الهاشمية لم تعد مكانا يدرأ عن الخليفة أخطار أعدائه المحليين ، اذ انها لم تكن حصينة لتصمد في وجههم ، وبدا له ، من دون أدنى شك ، أن ثورة الراوندية ، رغم انها لم تكن قوية منظمة ، فقد كادت أن تودى بحياته ، فكيف ياترى يكون مصير المدينة وجندها وأهلها ، اذا ما تعرضت لهجوم مسلح منظم كبير من خارج المدينة معزز بثورة اهلية داخلية ، لاشك أن المنصور قد فكر بمثل هذا التفكير ، ودرس مثل هذا الأحتمال ، وأنه استعرض تحصينات الهاشمية ، وقصره الذي يعيش فيه ، فرأى أن المكان وان كان محميا بعدد من الجند والمدافعين ، قد لا يصمد أمام قوة طاغية مسلحة [1] .

ولقد أكدت بعض المصادر التاريخية [2] أثر حركة الراوندية كعامل مهم حفز المنصور لأن يبني مدينته المدورة ، وفي وسعنا أن نتصور الأثر الذي تركته في حياته ، اذ أن الموت كان يحدق به ، ولولا ثبات قسم من حرسه واستبسالهم في الذود عنه وحمايته لقتل ، فقد روى الطبرى أن المنصور قال : « أخطأت ثلاث خطيات وقانى الله شرها ، قتلت ابا مسلم وأنا في خرق ومن حولي يقدم طاعته ويؤثرها ولو هتكت الخرق لذهبت ضياعا ، وخرجت يوم الراوندية ولو أصابنى سهم غرب لذهبت ضياعا ، وخرجت الى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ضياعا » [3] .

وفي وسعنا أن نحصر المظاهر العسكرية في بناء مدينة بغداد المدورة في نقطتين رئيستين : اولا ـ الموضع ثانيا ـ التحصين .

اولا ـ الموضع : ان المنطقة التى اختارها المنصور ليبنى فيها عاصمته ، على جانب كبير من الأهمية ، اذ انها تقع في وسط العراق ، ومثل هذا الموضع يمنح رجالها وجندها القدرة على الحركة في كل الأتجاهات ، ولا يخفي أن بناء

---

١ ـ طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة صفحة ١٣٨

٢ ـ انظر الطبري ج ٦ صفحة ٢٣٤

٣ ـ نفس المصدر ج ٦ صفحة ١٤٩

المراكز العسكرية أو العواصم في وسط الدولة ميزة لها أهميتها الستراتيجية وعلى وجه الخصوص ، في ذلك الوقت ، حينما كانت وسائل الأنتقال بطيئة تعرقل تقدم الجيوش ، ولا يخفى أن وجود العاصمة في مكان ناء في شمال القطر أو جنوبه قد يشجع على التمرد والخروج على السلطة ، اذ يكون بعد أماكن الثورة عن مركز القيادة العسكرية وامداداتها ، باعثا مهما للثورة .

هذا بالأضافة الى أن المكان المختار ، يقع الى غرب نهر دجلة ، يشمل على طسوج قطر بل وبادوريا تخترقه الأقنية والنهيرات من جانبه الغربي وتجوس خلال أراضيه نحو الشرق ، حتى تصب في دجلة ، وتبرز هذه الاهمية من اتخاذ بعض الشعوب عواصمهم على مقربة من هذه المنطقة مثل طيسفون ودوركوريكالزو وسلوقية .

وكان اهم أنهار منطقة بغداد «نهر رفيل» الذى كان يأخذ مياهه من الضفة اليسرى لنهر الفرات ، وينقسم عند المحول الى قسمين ، يصب الأول منهما في دجلة عند الموضع الذي أقام عنده عيسى بن على قصره ويصب الثانى في جنوب بغداد ، وفي العصر العباسى عرف النهر باسم « نهر عيسى » نسبة الى عيسى بن على عم المنصور . و « نهر الصراة » الذي يأخذ مياهه من نهر عيسى فوق قرية المحول ويصب في دجلة أسفل قصر الخلد بشيء يسير . ونهر ثالث مهم، هو « نهر كر خايا » الذي يحمل مياهه من نهر عيسى أسفل المحول، وقد كان يتفرع من يساره أربعة فروع هي نهر رزين والبزازين والدجاج والقلائين ، ويتفرع من يمينه نهر واحد هو نهر الكلاب وهناك نهر آخر تصل مياهه الى أرض بغداد الغربية هو نهر دجيل ، الذى يستقي مياهه من الضفة اليمنى لنهر دجلة بين تكريت وبغداد ويتفرع الى فرعين رئيسين أحدهما نهر بطاطيا الذي كانت له ثلاثة فروع تسقى طسوج قطر بل وتعبر فوق الخندق الطاهرى .

ان وقوع بغداد في المنطقة التى يقترب فيها النهران الكبيران ، دجلة والفرات ، ووجود عدد كبير من الانهر التى أشرنا اليها آنفا . يجعل منها مكانا حصينا ، اذ المعروف ان الترع والنهيرات تكون بمثابة وسائل دفاعية ذات أثر كبير في صد الغزاة والمعتدين ، وتحول بالتالى دون تغلغلهم في المنطقة ، ولقد فطن صاحب بغداد الذي مثل بين يدي الخليفة المنصور حينما استشاره عن مزايا الموضع الذي اختاره فقال للمنصور : « وأنت بين انهار لايصل اليك عدوك ، وأنت بين دجلة والفرات لايجيئك أحد من المشرق والمغرب الا احتاج

العبور [1] » . وهذا النص يبرز بصورة واضحة جلية ، اهمية موضع بغداد العسكري ، كأحسن نموذج طيب للستراتيجية الحربية ، اذ أن وجود النهرين الكبيرين ، دجلة في شرق الموضع ، والفرات في غربه ، يؤلفان خطين للدفاع عن العاصمة المنشأة والاراضى المحيطة بها ، فالجيش الغازي لها سواء كان قادما من الشرق ام الغرب ، يتعسر على جنده وفرقه وأعتدته وتمويناته العبور من النهر اذا ماقطعت الجسور ، وكذلك يصبح من السهل على جيش الخليفة العباسى احباط كل محاولة ترمي الى اقامة معبر للجند الغزاة بيسر وسهولة ؛ هذا فضلا عن أن الجيش الغازي يقطع عن نفسه خط الرجعة وتمويل القطعات بالمواد الغذائية والامدادات البشرية اذا مانجح في العبور، اذ أن وجود النهرين الواسعين يجعلان أمر توفير مثل هذه الامدادات من الصعوبة بمكان [2] .

ونستطيع أن ندرك هذه الاهمية مما قاله المنصورحينما وقع اختياره على موقع بغداد بعد تفحص واختبار لأماكن عديدة ، فقد روى الطبرى أن المنصور قال عن المكان المختار « هذا موضع معسكر صالح » [3] .

ثانياً ـ التحصين

ولقد أشرت في أول البحث ، بأن الباعث العسكري في بناء بغداد المدورة كان اهم الدوافع لأيجادها ، ودليلنا على ذلك هو عدم وجود المتنزهات والحدائق واماكن اللهو والتسلية فيها ، ونستنتج ذلك من قول رسول ملك الروم حينما سأله المنصور عن رأيه في المدينة فقال : « يا أمير المؤمنين انك بنيت بناء لم يبنهأحد كان قبلك وفيه ثلاث عيوب... وأما العيب الثاني فان العين خضرة وتشتاق الى الخضرة وليس في بنائك هذا بستان » [4] .

ولقد حرص المنصور على أن تكون المدينة محصنة ، تتوافر فيها وسائل الدفاع والتحصين ، والظاهر من نصوص المؤرخين ، أن المهندسين والمعمارين والعمال الذين أشرفوا على العمل ونفذوه ، قد وفقوا توفيقا كبيرا في اشباع رغبة الخليفة ، واستكمالا لوسائل الدفاع ، فقد أمر الخليفة المنصور تحويل الأسواق من المدروه الى ربض الكرخ ، ويشير المؤرخون الى روايات متعددة في أسباب هذا الأجراء وقد أشار الخطيب بأن سبب هذا النقل نتيجة لنصيحة رسول ملك الروم الذي قال للمنصور « ... فأما العيب الثالث فأن رعيتك

---

١ ـ الطبري ، ج ٦ صفحات ٢٣٤ ، ٢٣٥

٢ ـ طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٤٠

٣ ـ ج ٦ ، صفحة ٢٣٤

٤ ـ الخطيب ، تأريخ ، ج ١ صفحة ٧٨

معك في بنائك واذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره » [1] .

ويقدم الطبرى رواية وافية بهذا الصدد ، فيروى بأنه « قدم على المنصور بطريق من بطارقة الروم وافدا فأمر الربيع أن يطوف به في المدينة وما حولها ليرى العمران والبناء ، فطاف به الربيع ، فلما انصرف قال للبطريق ، كيف مدينتى ؟ وقد كان أصعد الى سور المدينة وقباب الأبواب ، قال — رأيت بناء حسنا ومدينة حصينة الا انى قد رأيت أعداءك معك في مدينتك ، قال ومن هم؟ قال السوقة يوافي الجاسوس من جميع الاطراف فيدخل الجاسوس بعلة التجارة ، والتجارهم برد الآفاق فيتجسس بالأخبار ويعرف مايريد وينصرف من غير أن يعلم به أحد أو يفتح أبواب المدينة لرفاقه ليلا » [2] .

أما وسائل التحصين الدفاعية ، فأنها تتمثل في الخندق والأسوار والأبواب ، أما الخندق فأنه كان يحيط بالسور الخارجى ، وكان يأخذ مياهه من قناة يتفرع من نهر كرخايا [3] ، وكانت تقوم على الخندق في جانب السور سدة أو مسناة تدور مع دوران السور كله ، وجوانب هذه السدة كما روى اليعقوبي مبينة من الآجر والصاروج بطريقة متقنة محكمة [4] ، ومن الطبيعي أن الغرض من وجود هذه المسناة هو حماية السور الخارجى من تسرب مياه الخندق اليها . أما وظيفة هذا الخندق ، كما هو معلوم ، عرقلة تقدم الغزاة الى السور الخارجى ، والظاهر من النصوص التأريخية ، أن هذا الأسلوب في تحصين المدن والحصون ، عرفه العرب قبل الأسلام وبعده ، فقد أوضحت الروايات التأريخية ، أن بعض حصون اليمن كانت تحاط بخنادق [5] ، وتشير المصادر العربية الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قام بحفر خندق حول المدينة حينما علم بغزو الاحزاب لها [6] وزودت المدينة المدورة بثلاثة أسوار ، السور الخارجى (هو الاول) ، والسور الداخل (وهو الثانى) ، والسور الثالث .

يبدو أن السور الخارجى ، كان لايداني السور الداخل ، فالظاهر أنه كان أقل ارتفاعا وسمكا منه ، اذ أن اليعقوبى حينما يشير اليه يسميه السور

---

١ — نفس المصدر
٢ — انظر الطبري ج ٦ الصفحات ٢٦٦ و ٢٦٧
٣ — اليعقوبي ، البلدان صفحة ٢٣٩
٤ — نفس المصدر
٥ — جواد علي ، تأريخ العرب ، ج ٨ صفحة ٤٩
٦ — ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ صفحة ٢٢٤

فحسب بينما يسمي السور الداخل بالسور الأعظم .[1]

ويفهم من روايتين للطبرى والخطيب[2] ، بأنه كان أقل طولا من السور الثانى ، وعلى الرغم من هذه الأشارات ، فأن المصادر العربية ، قد أمسكت عن وصف هذا السـور ، ولهذا فأنه ليس لدينا معلومات تأريخية ثابتة عن عرضه وارتفاعه .

والذى يبدو أن وظيفة هـذا السور لم تـكن دفاعية محصنه ، اذ أن أساليب الدفاع عن المدينة المدورة لاتعتمد عليه بالدرجة الأولى ، اذ الثابت أن السور الداخل (الاعظم) هو المعول عليه [3] .

ويظن هرتسفيلد Herzfeld بوجود بعض الدعامات أو المساند المدورة التى تدعم هذا السور مثل أسوار سامراء [4] غير أنه ليس لدينا من النصوص التأريخية ما يؤيد أو ينفى وجود الأبراج أو الدعامات ، اذ أن المصادر العربية كما أسلفنا ، لم تشر اليها كما أشارت الى وجودها في السور الداخل ، ومع هذا فنحن نميل الى تأييد رأى هرتسفيلد بوجود الدعامات أو المساند .

وكان لهذا السور أربعة أبواب ، باب الـكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام [5] والذى يبدو أن هذه الأبواب كانت بأتجاهات المدن الأسـلامية المشهورة ، وعلى الطرق المؤدية منها واليها ، وكانت كل باب من تلك الابواب مخصصة لدخول اهل مدينة من المدن [6] .

ومما يتعلق بهذه الأبواب ، احتواءها على ظاهرة معمارية ، تعد فريدة في نوعها ، وهى ظاهرة المدخل المنحرف أو المزور "The Bent Entrance" فقد روى الخطيب : « اذا دخل الداخل من باب خراسـان الأول عطف على يساره في دهليزأزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون ذراعا ، المدخل اليه فيعرضه والمخرج فيه من طوله [7] » ، ويؤيد ياقوت ماذهب

---

١ ـ البلدان ، صفحة ٢٣٩

٢ ـ الطبري ، ج ٦ صفحة ٢٦٥ ، الخطيب ، تأريخ بغداد ، ج ١ صفحة ٣

٣ ـ طاهر العميد ، بغداد ، مدينة المنصور المدورة ، صفحة ٢١٨

٤ ـ Archäologische Reise im Euphrate und Tigris — Gebiet, 11, P. 119.

٥ ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣ ، ابن رستة ، الاعلاق النفسيـة ، صفحة ١٠٨

٦ ـ الخطيب ، تأريخ بغداد ، ج ١ صفحة ٧٢ ، ابن الجوزي ، مناقب بغداد صفحة ١٠ ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ صفحة ٦٨٢

٧ ـ الخطيب ، تأريخ بغداد ج ١ صفحة ٧٤

اليه الخطيب فيقول : « وقيل انما سميت بالزوراء وذلك لأن المنصور حين عمرها جعل الأبواب الداخله مزورة عن الأبواب الخارجة أى ليست على سمتها [1] » .

ومعنى هذا ان الداخل من الباب الى الرحبة أو الساحة التى تلى الباب الخارجية لايستطيع المرور اليها بطريق مستقيم ، بل لابد له من الانحراف الى جهة اليسار ، فالمدخل والحالة هذه ملتو أو على شكل زواية قائمة ، وهذا الطراز من المداخل ، يخفى وراءه اسلوبا عسكريا ، فالمدخل المنحني أو المزور ، أو البوابة ذات الممر المنحرف الى اليسار ، لوحظ فيه أن يضطر الغزاة بعد اقتحامهم الى الأنحراف الى اليسار للعبور من مدخل ثان ، فتتعرض جوانبهم اليمنى للسهام الموجهة اليهم ، وكان الجند يحملون التروس بأيديهم اليسرى فتبقى جوانبهم اليمنى مكشوفة [2] .

أما السور الثانى ، فأنه كما ألمحنا ، اكثر ارتفاعا وسعة وضخامة من السور الأول ، ومن المؤكد أن بناة المدورة ، زيادة منهم في تحصين المدينة كي يجعلوا منها ، مكانا حصينا ، وموضعا دفاعيا ، يدرأ عن الخليفة وأتباعه غزو الأعداء ، أضفوا على هذا السور أساليب القوة والمنعة ، فقد أشار اليعقوبي بأن « أساس هذا السور كان تسعين ذراعا مع الشرفات [3] » ووصفه كل من الخطيب وابن الجوزي بقولهما « ارتفاع هذا السور ... خمسة وثلاثون ذراعا وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعا » [4] .

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في ارقام أبعاد هذا السور ، فأن الباحث يدرك بأنه كان قد شيد محكما وضخما ، كي يؤدى وظيفة الدفاع ، وصد غارات الاعداء ، والواضح من الروايات التأريخية ، أنه كان مدعما بالأبراج ، وقد قال اليعقوبي عنه بأنه كان له « ابرجة عظام وعليه الشرفات [5] » .

---

١ ـ معجم البلدان ، ج ٢ صفحة ٩٥٤

٢ ـ للاستزادة من هذه الظاهرة المعمارية راجع
Creswell, Early Muslim Architecture, II, PP. 24 — 29.
وانظر طاهر العميد . بغداد مدينة المنصور المدورة ، الصفحات ٢٢٠ ـ ٢٣٢

٣ ـ البلدان ، صفحة ٢٣٩

٤ ـ الخطيب ، تأريخ بغداد ، ج ١ صفحة ٧٤ ؛ ابن الجوزي ، مناقب بغداد صفحة ١٠

٥ ـ البلدان ، صفحة ٢٣٩

أما عددها ، فأنه كان بين كل بابين ثمانية وعشرون برجا ، الا مابين باب البصرة والكوفة ، فأنه كان يحتوى على تسعة وعشرون برجا ، وفيما يخص شكل هذه الأبراج أو هيأتها ، فأنه من العسير تحديدها ، اذ أن المصادر العربية قد أمسكت عن وصفها ، ويرى كريزويل Creswell بأنها كانت على هيأة نصف مستديرة تشبه تلك التي في قصور وجوامع وأسوار سامراء [1] وفي رأينا أن هذه الأبراج قد تكون على شكل ، حدوة الفرس horse-shoe-shaped ، كما هو الحال في مـدينة الرقة ، وكما هو معلوم من روايتي البلاذري والهمداني ، أنها بنيت على طراز مدينة بغداد [2] .

---

١ – Early Muslim Architecture, II, P. 12.

٢ – البلادري ، فتوح البلدان ، صفحة ١٨٤ ف الهمداني ، البلدان ، صفحة ١٣٢